الذكرى الـ ٢٧ لانتصار الجماهير البلغارية بقيادة حزبها

● الرفيق تيودور جيفكوف ●

بقلم
هاشم علي محسن

منذ سبعة وعشرين عاما خلت والشعب البلغاري يحتفل سنويا في ذكرى انتصار ارادته ونجاح ثورته ففي ٩ ايلول – سبتمبر – ١٩٤٤ ، تكلل كفاح الشعب البلغاري المسلح بهزيمة الفاشية واستلام الجبهة الوطنية الموحدة للسلطة في البلاد التي كانت ميزانيتها خاويةمفلسةتماما لدرجة ان حكومة جورجي ديمتروف وهي اول حكومة وطنية ديمقراطية ثورية تتولى السلطة ، اضطرت لان تتوجه الى الجماهير لتمنحها قرضا ماليا اسمته (قرض الحرية) وبطبيعة الحال فان الشعب البلغاري ما يزال يتذكر ايام الفقر والاستغلال والجوع والمرض والموت السوداء .

وهو اذ ينعم اليوم بالحياة الاشتراكية ويتمتع بالحرية الشيوعية ، فان ما ينعم به ويتمتع به لا بد ان يعيدانه الى ذاكرة تلك الايام ، ومع ان المقارنة بين العهدين، عهد الفاشية والاستغلال والارهاب وعهد الاشتراكية والشيوعية تثير السخرية والارتياح في آن سوية : السخرية من اولئك الذين سرعان ما انهارت ارادتهم وتحطمت سطوتهم وجبروتهم بفعل اتحاد قوى الشعب التقدمية والوطنية بجبهة وطنية موحدة خافعة لقيادة بروليتاريا ماركسية لينينية صلبة متمثلة بحزب بلاكويتش وكولاروف ودمتروف وجينكوف، الحزب الشيوعي البلغاري الذي نظم وقاد كفاح الشعب البلغاري على مدى ثمانين سنة خاض الحزب اباءها معارك قاسية وعاش ظروفا صعبة وفي كل تلك التجارب كان الحزب يؤكد قدرته على مجابهة تلك الظروف الصعبة ونجاحه في التغلب على قسوة تلك المعارك .

ان الشعب البلغاري اذ يحتفل اليوم بعيد ذكرى انتصار ثورته السابعة والعشرين كما هو شانه في الايام الخالدة التي يحيي فيها انتصاراته وامجاده هو ، فانه لا يتذكر بل انه لا يرغب في ان يعيد الى ذاكرته تلك الايام الزهية التي كانوا يسمونها اعيادا لتمجيد ملك او سلطان هما في حقيقتها بدعتان تخفت عنهما مخيلة الحاكمين ، لجعل تسلطهم على الجماهير حق الهي ، ولا قوة للناس الا بالخضوع له والركوع لارادته . لقد انصرمت تلك الايام واندثرت واصبحت اعياد الشعوب الاشتراكية مناسبات للمراجعة والاعداد بغية الوصول نحو الافضل ، وهذا الامر بحد ذاته من شانه ان يحفز الشعوب الاخرى لان تلحق بركب التحرر والديمقراطية والاشتراكية .

في هذا العام مثلا احتفل الشعب البلغاري بمناسبات عدة اهمها : احتفاله بمناسبة انعقاد المؤتمر العاشر في اواخر نيسان ، كما احتفل بمناسبة مرور ثمانين عاما على تاسيس الحزب الشيوعي في ٢ آب الماضي ، وتبادل ابناء بلغاريا التهاني في ٧ ايلول بمناسبة بلوغ عامل الطباعة تيودور جيفكوف عامه الستين ويوم الخميس الماضي كان العيد الكبير ، عيد انتصار الثورة . ان هذه المناسبات والاعياد التي تحتفل بها الشعوب الاشتراكية تختلف عن تلك المناسبات والاعياد التي كانت هذه الشعوب وما تزال شعوبنا المقلوبة على امرها يفرض عليها الاحتفال بها .

مهمات البروليتاريا في ثورتنا الراهنة

لا شك في ان ستالين حين قال في اوائل نيسان ١٩٢٤ « ان اللينينية هي ماركسية عصر الاستعمار والثورة البروليتارية » (١) قد اكد حقيقة جاءت الوقائع مصدافا لها ، ولكن الطبقة العاملة البلغارية منحت هذا القول مضمونه العملي وقرنته بالممارسة الفعلية بشكل تجاوز في وضوحه ما حققته الطبقة العاملة في العديد من بلدان عالمنا المسمى بالعالم الثالث .

وحين تنبأ لينين منذ شباط ١٩٠٢ بقوله : « ان التاريخ يلقي على عاتقنا الآن مهمة مباشرة هي اكثر ثورية من جميع المهمات المباشرة الموضوعة امام البروليتاريا في اي قطر اخر . وان انجاز هذه المهمة ، اي تحطيم اقوى حصن للرجعية الاوروبية بل ، وهو شيء نستطيع قوله الان ، للرجعية الاسيوية ايضا سيجعل من البروليتاريا الروسية طليعة البروليتاريا الثورية العالمية » (٢) حين تنبأ بهذه النبوءة العظيمة التي تحققت في صبيحة السابع عشر من اكتوبر عام ١٩١٧ كان يستند الى طبيعة الظروف الموضوعية الجديدة التي نشأت بتحول الراسمالية الى امبريالية وصيرورتها ظاهرة عالمية حالت دون طبيعة البرجوازية في المستعمرات ودورها التاريخي واخضعتها لسلطانها لدرجة اصبح معها طريق التطور الراسمالي مسدودا امام تطور حركة التاريخ في المستعمرات والتابعات ، وبذلك غدت الثورة البروليتارية ضرورة ملحة ومهمة لا مناص منها مطروحة امام الماركسيين الثوريين وقد ادرك لينين هذه الحقيقة ادراكا افضى به الى ان يشق للماركسية طريقا يتنافض كليا مع الطريق الذي كانت سائرة فيه الاممية الثانية .

وقد لخص ستالين متطلبات السير على خطى لينين والالتزام بنهجه باربعة مستلزمات هي في حقيقتها ومضمونها شروط اساسية لعمل البروليتاريا الماركسية اللينينية : « اولا – اختيار العقائد النظرية للاممية الثانية في نار نضال الجماهير الثوري ، في نار التجربة الحية ، اي اعادة الوحدة المفقودة بين النظرية والنشاط العملي ، وازالة القطيعة القائمة بينهما اذ بهذه الطريقة فقط يمكن خلق حزب بروليتاري حقا ، مسلح بنظرية ثورية . ثانيا : اختبار سياسة احزاب الاممية الثانية ، لا حسب شعارات هذه الاحزاب وقراراتها (التي لا يمكن الوثوق بها) ، ولكن حسب اعمالها وافعالها ، اذ بهذه الطريقة فقط يمكن احراز ثقة الجماهير البروليتارية واستحقاق هذه الثقة . ثالثا : اعادة تنظيم كل عمل الحزب حسب اسلوب جديد لوري ، بروح تثقيف الجماهير واعدادها للنضال الثوري ، اذ بهذه الطريقة فقط ، يمكن تهيئة الجماهير للثورة البروليتارية . رابعا : الانقاذ الذاتي للاحزاب البروليتارية ، وتعليم هذه الاحزاب وتثقيفها على اساس اخطائها نفسها ، اذ بهذه الطريقة فقط ، يمكن تكوين ملاكات حقيقية وزعماء حقيقيين للحزب . ذلك هو الاساس وذلك هو الجوهر في الطريقة اللينينية » (٣) .

ان اللينينية بقدر ما هي مستمدة ومستندة الى تعاليم ماركس وانجلس فهي تمثل بحق تطويرا مكثفا واغناءا لنظرية ماركس ، فقد سار لينين على خطى ماركس وتعاليمه التي هي « انتقادية وثورية من حيث جوهرها » (٤) على حد قول ماركس نفسه .

وبقدر ما كانت طريقة لينين في مضمونها تجديدا لبنية الماركسية ، فقد كانت ايضا تطبيقا ملموسا وتطويرا خلاقا الى امام لطريقة ماركس وداليكتيكه المادي .

وحين صاغ لينين القاعدة العلمية « بدون نظرية ثورية لا حركة ثورية » (٥) كان يعبر بذلك احسن تعبير عن فهمه لاهمية النظرية الثورية بالنسبة للحزب البروليتاري الثوري الذي ياخذ على عاتقه لعب الدور الكفاحي باعتباره طليعة لجماهير العمال والفلاحين وسائر الكادحين اصحاب المصلحة في الثورة والتغيير الديمقراطي – الاشتراكي الثوري . وقد اقترن قول لينين هذا بنظرية معينة هي نظرية الطبقة العاملة التي اسماها نظرية الطليعة :

« فقط حزب ترشده نظرية الطليعة ، يستطيع ان يقوم بدور مناضل » (٦) .

وبتوفر هذا الحزب الماركسي اللينيني الطليعي وفي ظل ظروف الاستعمار الذي هو عشية الثورة الاشتراكية(٧) على حد قول لينين . فان مسالة الثورة البروليتارية تصبح ممكنة التحقيق ، ذلك ان الظروف التي تسبق الثورة اصبحت على درجة من النضج من حيث حالة الاقتصاد العالمي، الذي بات اقتصاد كل قطر من اقطار العالم يمثل حلقة من حلقات سلسلته التي غدت تغطي العالم باسره ولم يعد امر الثورة موقوفا على درجة نضج الظروف الموضوعية لهذا البلد او ذاك وحده ، بل ان امرها امسى متعلقا « في مجموع النظام الاقتصادي الاستعماري العالمي ، من حيث هو كل ، وعلى هذا ، فان وجود بعض بلدان غير متطورة بصورة كافية من الناحية الصناعية في جسم هذا النظام ، لا يمكن ان يكون عائقا لا يذلل في وجه الثورة ، ما دام النظام بمجموعه ، او على الاصح لان النظام بمجموعه قد نضج لاجل الثورة » (٨) و « ان جبهات الراسمال الوطني المختلفة اصبحت حلقات في سلسلة واحدة اسمها جبهة الاستعمار العالمية التي ينبغي ان تعارضها الجبهة المشتركة للحركة الثورية في جميع البلدان » (٩) .

ولهذا السبب « ينبغي اعتبار الثورة البروليتارية قبل كل شيء ، كنتيجة لتطور التناقضات في النظام العالمي للاستعمار كنتيجة لانقطاع سلسلة الجبهة الاستعمارية في هذا البلد او ذاك » (١٠) حيث تكون الحلقة التي تمثلها اقتصاد هذا البلد او ذاك في سلسلة الاقتصاد الاستعماري العالمي اضعف ، اي ان امكانيه حدوث الثورة له تعد متحققة فقط بدرجة تطور الصناعه ، وضرورة البروليتاريا اكثرية ساحقة في بلد معين دون سواه كما اشار البيان الشيوعي بقوله « ان سائر الحركات التاريخية الى يومنا هذا (اسام ماركس وانجلس) لم تكن سوى حركات قامت بها الاقليات او جرت لمصلحة الاقليات . اما البروليتاريا فهي حركة واعية مستقلة تقوم بها الاكثرية الساحقة لمصلحة الاكثرية الساحقة » (١١) .

انها حركة واعية ولكنها ليست مستقلة بمعنى ليست خاصة بالبروليتاريا وحدها ، بل انها حركة واعية ولكنها مشتركة بين عدد من الطبقات الثورية تشكل الاكثرية الساحقة بقيادة البروليتاريا ، فالبروليتاريا ليست هي وحدها التي تمثل « ادنى طبقة في مجتمعنا الراهن » (١٢) فهناك طبقة الفلاحين الفقراء في الريف وطبقة البرجوازية الصغيرة ، وبالتالي لا يمكن ان تنطلق لتقويم عودها بـ « نسف كل الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض » (١٣) ولكنها تقوم بواسطة حزبها الطليعي بنسف الطبقات الرجعية ، لتعيم على انقاضها سلطة الطبقات الديمقراطية الثورية ، وقد تحقق هذا الامر عام ١٩١٧ بقيام ثورة العمال والفلاحين في روسيا التي كانت تمثل اضعف حلقة في سلسلة الاقتصاد العالمي للاستعمار ، « ولهذا السبب فان الحسابات الاحصائية عن النسبة المئوية البروليتارية في تركيب السكان في هذا البلد بمفرده او ذاك ، يفقد فيما يتعلق بحل مسالة الثورة البروليتارية تلك الاهمية الاستثنائيه التي كان يعزوها اليها ، بطبية خاطر ، فقهاء الاممية الثانية الذين لم يفهموا ما هو الاستعمار ، والذين يخافون الثورة كما يخافون الطاعون » (١٤) .

ان الاصرار على « ان بين الثورة الديمقراطية البرجوازية ، من جهة ، والثورة البروليتارية من جهة اخرى ، هوة او سورا مثل سور الصين يفصل احدهما عن الاخرى بفترة من الزمن طويلة كثيرا او قليلا تعمل فيها البرجوازية التي تصل الى الحكم على تطوير الراسمالية بينما تكدس البروليتاريا قواها وتستعد للنضال الحاسم ضد الراسمالية » (١٥) .

ان الاصرار على تصور مثل هذا السور بين الثورتين الديمقراطية والاشتراكية ما هو الا « تشويش من الدرجة الاولى » (١٦) ولا يمت الى الماركسية بصلة . انه « فتاتت من مذاهب ليبرالية ونشر روح الاستخذاء امام البرجوازية وامام الكولاك » (١٧) .

وقد اكد لينين مئات المرات وآلاف المرات منذ عام ١٩٠٥ اتصال الثورتين وتداخلهما مع بعضهما البعض ، وقد جاءت الوقائع لتؤكد وجهة نظر لينين وجرى كل شيء تماما ومطابقا لتاكيده وصحة محاكمته التي رسمت مجرى الثورة العالمية وحدد مسيرتها ، حيث تحققت الثورة في العديد من البلدان وفق الصيغة اللينينية التالية :

« مع كل الفلاحين ضد الملكية ، ضد الملاكين العقاريين ، ضد القرون الوسطى (ونظرا لذلك تبقى الثورة ثورة برجوازية ، ثورة برجوازية ديمقراطية) . ثم ، مع الفلاحين الفقراء مع انصاف البروليتاريين ، مع جميع المستثمرين ، ضد الراسمالية ، بمن فيها الريفيين الاغنياء الكولاك المضاربون ، وعليه تصبح الثورة ثورة اشتراكية . وما الرغبة في اقامة حاجز صناعي كسور الصين بين الثورتين ، والفصل بينهما بقدر درجة استعداد البروليتاريا ودرجة اتحادها مع الفلاحين الفقراء الا تشويه كبير جدا للماركسية ، وتحقير لها ، واحلال الليبرالية محلها ، فكأن تريد المرء ، باستشهادات علمية مزعومة بطابع البرجوازية التقدمي ازاء القرون الوسطى، ان يعدد الدفاع الرجعي عن البرجوازية ضد البروليتاريا الاشتراكية » (١٨) .

ان الاصرار على المرور بمرحلة التطور الراسمالي اصرار خال من كل معنى علمي ، وهو موقف من شانه ان يخدم الاستعمار وعملائه نزعه العوائق والعقبات في طريق الثورة .

« ينبغي على البروليتاريا ان تقوم بالثورة الديمقراطية الى النهاية بان تضم اليها جماهير الفلاحين لسحق مقاومة الاوتوقراطية بالثورة ، وشل تذبذب البرجوازية وينبغي على البروليتاريا ان تقوم بالثورة الاشتراكية بان تضم اليها جماهير العناصر شبه البروليتارية من السكان لسحق مقاومه البرجوازية بالقوة وشل تذبذب الفلاحين والبرجوازيه الصغرة » (١٩) .

مآثر الطبقة العاملة البلغارية

هذه هي اذن مهمات البروليتاريا في ايامنا كما رسمها لينين وحدد اسسها النظرية بدقة علمية متناهية . ولنا الان ان نتساءل عن الطبقة العاملة البلغارية والكيفيه التي طبقت بها النظرية اللينينية في ظروف لبلغاريا الاوروبية المتخلفة ؟

لقد ناضل لينين نضال الواثق من نفسه والمشخص لهدفه في مناظرته الرائعة التي تضمنها كتابه « ما العمل ؟ » بخصوص مسالة بناء الحزب البروليتاري الطليعي ودور الطبقة العاملة في روسيا خاصة وفي بقية البلدان عامة ، وقد مر معنا الى اي مدى كان لينين بهزا وسخر من اولئك الماركسيين الذين يضعون « سورا صينيا » بفصل بين الثورة الديمقراطية والثوره الاشتراكيه بحجة عدم كفاية التطور الاقتصادي تاره ، وقلة عدد الطبقة العاملة تاره اخرى .

وجاءت الوقائع لتؤكد وجهة نظر لينين وصدق سنالين .

ان الوقائع التاريخية التي شهدت بصواب وصحة اللينينية ، لم تتجل بوضوح تام مثلما تجلت في بلغاريا وتجسدت في حركة الطبقة العاملة البلغارية وطليعتها الحزب الشيوعي البلغاري .

ان اطلاعنا على تاريخ كفاح الشعب البلغاري الثوري وعلى وجه الخصوص ، منذ تاسيس حزب الطبقة العامله البلغاريه اي منذ الثاني من آب عام ١٨٩١ حتى الان يسمح لنا بان نسجل للشعب البلغاري وطليعته الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي الشقيق المآثر التالية :

● اولا – كان للبلغار شرف نقل افكار ماركس وانجلس الى حيز الواقع قبل غيرهم ، ففي روسيا كانت (حلقة بلاكويف) النواة التي انطلقت عنها الحركه – الاشتراكية – الديمقراطية الروسية وكان احد اعضائها ، ومعلوم ان دمتر بلاكويف بلغاري لجا الى روسيا من جراء مطاردته من الطغاة العثمانيين ، فنشط هناك وأسس حلقته المذكورة .

● ثانيا – تعاقب البلغار على تحمل مسؤولية الاممية الثالثة ، اذ كان فاسيل كولاروف سكرتير لجنتها التنفيذية العام طيلة عامي ١٩٢٢ – ١٩٢٣ وشغل المركز ذاته جورجي ديمتروف منذ عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٣ حيث تفرغ لشؤون بلغاريا . كما كان بلاكويف اعظم نظري عصره الماركسيين في روسيا وفي بلدان البلقان وتحمل البلغار مسؤولية قيادة الحركة الشيوعية في بلدان البلقان اذ ان دمتروف كان سكرتير اتحاد الاحزاب الشيوعية البلقانية .

● ثالثا – كما كان البلغار اول المبادرين في اوروبا لتاسيس الحزب الاشتراكي – الديمقراطي وكان اول حزب للاممية الثانية في اوروبا . وقد قام بتاسيسه بلاكويف ورفاقه في ٨/٢ ١٨٩١ ويعتبر اليوم قمة بوزولجيا في جبل ستارالانينا من الامكنة التاريخية ، حيث انعقد فيها اول اجتماع للاشتراكيين – الديمقراطيين البلغار تقرر فيه تاسيس الحزب الذي نص نظامه الداخلي وبرنامجه على انه حزب ثوري للطبقة العاملة البلغارية .

● رابعا – قام الحزب الاشتراكي – الديمقراطي البلغاري بتطهير صفوفه من الانتهازيين في عام ١٩٠٣ وصار يدعى حزب الاشتراكيين الضيقين . وخلافا عن الاحزاب الاشتراكيه – الديمقراطية في اوروبا الغربية التي تهاوت في مستنقع الانتهازية والاشتراكية الشوفينية ، كان حزب بلاكويف ، مخلصا بصلابة لتعاليم ماركس وانجلس الثورية وللاممية البروليتارية ، ولا يهادن اي نوع من الانحرافات اليسارية واليمينية ويخدم مصالح البروليتاريا البلغارية والدولية بتفان .

وناضل الاشتراكيون « الضيقون » البلغار « الثوريون عمليا » كما وصفهم لينين ، ناضلوا بدأب ضد نشوب الحرب العالمية الاولى ، واشتركوا بنشاط في تشكل الاممية الشيوعية الثالثة واصبحوا من مؤسسيها ، واعتنق الاشتراكيون « الضيقون » في مؤتمرهم الثاني والعشرين عام١٩١٩ اللينينيةكاستراتيجية وتكتيك لهم واعادوا تسمية الحزب فتحول المؤتمر الى اول مؤتمر للحزب الشيوعي البلغاري (الشيوعيون الضيقون) .

● خامسا – ان تسليح الحزب باللينينية جعله صالحا لتنفيذ دوره التاريخي كطليعة للطبقةالعاملة ضمن الظروف الجديدة التي تحولت الثورة الاشتراكية خلالها من هدف بعيد الى مهمة مباشرة . ولجاء البرجوازية الكبيرة الى وسيلتها الاخيرة للاحتفاظ بالسلطة – الدكتاتورية الفاشية المكشوفة . ورد الحزب الشيوعي على ذلك في خريف عام ١٩٢٣ باستنهاض الجماهير الشعبية الى الانتفاضه المسلحة – اول انتفاضة معادية للفاشية في العالم .

● سادسا – فشلت انتفاضة ايلول – سبتمبر بيد انها مهدت الظروف للانتصار الشعبي في ٩ ايلول – سبتمبر عام ١٩٤٤ . وهكذا تعرض في لهيب الانتفاضة تحالف العمال والفلاحين الذي اصبح العمود الفقري للجبهة الوطنية ، التي شكلت فيما بعد كتحالف كفاحي لجمع قوى الشعب البلغاري الوطنية والديمقراطية من اجل اسقاط الدكتاتوريه الفاشية . وقد عمقت انتفاضة ايلول – سبتمبر الهوة بين الشعب والسلطة الفاشية . وخاض الشغلة في بلغاريا نضالا دموما ضد الفاشية طوال عشرين عاما . ولم يكن الحزب الشيوعي قادرا ومقداما وحسب في هذا النضال ، بل كان الشيوعيون دائما في صفوف النضال الاولى وقدموا اغلى الضحايا

● سابعا – عمل الحزب الشيوعي البلغاري ويعمل دائما منذ تاسيسه في عام ١٨٩١ ولغاية الان من اجل ارساء وحدة الشغلة وكل الشعب البلغاري باسم الانتصار على الراسمالية والفاشية ومن اجل بناء المجتمع الاشتراكي في بلغاريا . لقد مرت هذه الوحده عبر مراحل عدة . فمن وحدة للطبقة العاملة تحولت الى عمل موحد بين العمال والشغيلة والفلاحين . وتجلت عقب المؤتمر السابع للكومنترن في العمل الموحد للقوى المناهضة للفاشية والحرب ووصلت اثناء الحرب العالمية الثانية الى اوسع اتحاد بين القوى الديمقراطية المعادية للفاشية والامبريالية . فقد نشئت بالجبهة الموحدة خلال عام ١٩٢٣ ومرت عبر الجبهة الشعبيه في عام ١٩٣٦ لكي تصل خلال عام ١٨٤٢ الى الجبهه الوطنية التي انقذت بلغاريا والتي هب الشعب البلغاري تحت رايتها المثلثة الالوان في انتفاضة شعبية شاملة واحرز النصر النهائي في التاسع من ايلول – سبتمبر عام ١٩٤٤ بمعونة الاتحاد السوفياتي الاخوية ، وسار بعزم على طريق الاشتراكيه .

لقد تم الوصل الى هذه الوحدة والى هذا العمل المشترك بعد تقديم الكثير من الصداب والالام التي دونت بدماء الاف المناضلين المعروفين والمجهولين ، من اجل حقوق وحريات الشعب . وكلما غدت الفاشية اكثر وحشية ووقاحة ، كلما غدت اشكال هذه الوحدة والعمل المشترك اوسع واكثر فعالية . ويعتبر اعداد وتنفيذ اول انتفاضة مسلحة مناهضة للفاشية في العالم خلال شهر

البقية ص٢٠ ◀